تفسير
سورة العاديات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ

التفسير الموروث لسورة العاديات لا يتّكئ على أيٍّ منهجيّة علميّة تعتمد على الصياغة اللغويّة للنصِّ القرآني ، ولذلك ابتعد – هذا التفسير – عن حقيقة الدلالات المحمولة بالعبارات القرآنيّة في هذه السورة الكريمة ..

واستغلَّ بعضهم هذا الشطط في تفسير هذه السورة الكريمة للإساءة لكتاب الله تعالى ، معتبرين شطط الموروث التفسيري على أنَّه عين ما يعنيه كتاب الله تعالى ، مقدِّمين هذا الشطط مادَّة يريدون سكبها في قوالب التشكيك بمصداقيّة كتاب الله تعالى ..

سنقف – إن شاء الله تعالى – عند عبارات هذه السورة الكريمة لنشهد عظمة صياغتها اللغوية وما تحمله من دلالات ..

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ
نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ
۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي
ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴾ [العاديات : ١ – ١١]

.. كلمة : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ هي جمع العادية ، والعادية من الجذر (ع ، د ، و) ، ومن الفعل (عدا) دون تعدّي بالهمز أو التضعيف .. ومشتقات الجذر (ع ، د ، و) في كتاب الله تعالى لا تعني مجرَّد الجاريات بسرعة (الخيل – الإبل ....) كما هو في عرفنا اللغوي البعيد عن دلالات كتاب الله تعالى ، إنّما تعني : تجاوز فعل العادي للساحة الموجود بها كساحة ينتمي إليها ، إلى ساحة أُخرى ..

.. ففي قوله تعالى التالي نرى دلالات كلمة ﴿ تَعۡدُ ﴾ جليّة في ذلك :

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [الكهف : ٢٨]

.. وهذا ما نراه في كلمة : ﴿ يَعۡدُونَ ﴾ في قوله تعالى التالي ، حيث أنّها في سياقٍ قرآنيٍّ يُصوِّر – بمجمله – تجاوز الحدود المسموح بها ..

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ۝١٦٢ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ

يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٠ – ١٦٤]

.. السياق المحيط بالعبارة القرآنيّة : ﴿ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ ، يصوِّر تجاوز قوم موسى عليه السلام وتعدّيهم لما يتوجَّب عليهم عدم تعدّيه .. فكما أنَّ تبديلهم للقول الذي قيل لهم : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ ، هو تجاوز لما يجب عليهم ألاَّ يتجاوزوه ، فإنَّ المعنى المحمول في العبارة القرآنيّة : ﴿ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ ، هو تجاوز سلبي لما يجب عليهم ألاَّ يتجاوزوه ، ولذلك كانت تلك الحيتان تأتيهم يوم سبتهم ، كابتلاء من الله تعالى لهم ، لأنَّ صيدها — في يوم سبتهم – هو تجاوز للحدود التي عليهم ألا يتجاوزوها : ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .. ولذلك .. نرى أنَّ نهاية النصِّ تبيِّن لنا أنَّ العذاب الذي أُخذوا به ، هو نتيجة فسقهم : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .. ومن فسقهم ، تجاوزهم للحدود التي عليهم ألاَّ يتجاوزوها : ﴿ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ ..

.. إذاً .. قوله تعالى : ﴿ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ ، تعني : يتجاوزون الحدود التي كان عليهم ألاَّ يتجاوزوها في السبت ، وليس مجرَّد التحرّك الإيجابي .. وهذا ما نراه جليّاً في الأمر الإلهي لهم : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ ، والذي خالفوه ، حيث هذه العبارة في سياقٍ محيطٍ يؤكِّد هذه الحقيقة ..

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٣ – ١٥٥]

.. ومن هنا كانت كلمة : ﴿ عَدُوٌّ ﴾ تعني : المتجاوز لحدوه إلى حدود من هو عدوٌّ له ..

﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : ٣٦]

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨]

.. وهذا الذي بيّناه – حتى الآن – من مشتقّات الجذر (ع ، د ، و) ، يتعلّق بالمخلوقات العاقلة ، ككائنات تختار هي تجاوز حدودها إلى حدود غيرها ، تجاوزاً سلبيّاً .. وهذا التجاوز السلبي ناتجٌ عن السلبيّة في ذوات هذه الكائنات ، فالسلبيّة لا تعود للتجاوز إلى ساحة الآخر كتجاوز ، وإنّما تعود لكون هذا التجاوز سلبيّاً ..

.. وهذه الدلالات المجرّدة لهذا الجذر اللغوي (ع ، د ، و) ، عندما تتعلّق بالله تعالى ، فإنّها تتعلّق بصفات الذات الإلهيّة ، والتي تستحيل عليها السلبيّة ..

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨]

.. هنا العبارة القرآنيّة : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، لا تحمل سلبيّةً في كون الله تعالى عدوّاً للكافرين .. أبداً .. فالكافرون ليسوا على حقٍّ في كفرهم ، وهم مَن تجاوز في عمله الحدود المسموحة له ، والله تعالى ليس كأيٍّ آخر بالنسبة لهم .. أليس ربّهم ؟ .. أليس من يعطيهم حيثيّات وجودهم في كلِّ لحظة ؟ .. من هنا .. فإنَّ عداوة الله تعالى لهم : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، بمعنى : لن يدعهم يفلحوا فيما يتحرّكون به جحوداً وإساءة وظلماً .. بمعنى : أنّه مؤثِّر ومثبِّط لهم في ساحة تحرّكهم ، فهو الحيُّ القيّوم ، وفاعل وليس مفعولاً به .. ومن الجهل إسقاط تعلّق المخلوقات بدلالات الجذر (ع ، د ، و) على الله سبحانه وتعالى ..

.. بعد هذه المقدِّمة البسيطة ، لما تحمله مشتقّات الجذر (ع ، د ، و) ، ممّا تحمل من دلالات .. لنعد إلى الكلمة الأولى في السورة الكريمة ، التي نحن بصدد تفسيرها ، وهي كلمة : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ ..

.. العاديات هي جمع لكلمة : العادية (على وزن فاعلة) ، بمعنى : جمع لحالة القيام بتجاوز الحدود المسموح بها .. فالعادية ليست ذاتاً مؤنّثة (عاقلة أو غير عاقلة) ، إنّما هي حالةٌ لتجاوز الحدود المسموح بها ، تقوم بها ذاتٌ عاقلة مختارة تملك خيار عدم القيام بها .. وما نراه أنَّ الله تعالى لم يقل : (والمُعدِيات) إنّما يقول ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ ..

.. وأقرب كلمة لكلمة : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ كجمع لكلمة : (العادية) ، هي كلمة : ﴿ ٱلۡعَادُونَ ﴾ ..

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ – ٧]

.. هنا نرى أنَّ كلمة ﴿ ٱلۡعَادُونَ ﴾ ، هي جمع لأفراد لا يحفظون فروجهم ، أي : جمع لأفراد يتجاوزون – في هذا الفعل – ما هو مسموح لهم .. وفي كلمة : ﴿ ٱلۡعَادُونَ ﴾ نحن أمام جمع مذكّر سالم .. ومع ذلك .. فالأفراد المعنيّون ، يقومون بهذا التجاوز كفعل – يتجاوزون به ما هو مباح لهم – في أوقات معيّنة ، وليس ذلك فعلاً مستمرّاً على كامل زمن حياتهم .. وهذا ما نراه أيضاً في قوله تعالى :

﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ – ١٦٦]

.. وكلمة (العادية) كمفرد للجمع المؤنّث السالم : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ ، نرى تعلّقها بالحالة وليس بذات مؤنّثة (عاقلة أو غير عاقلة) أكثر وضوحاً وجلاء .. وهذا ما سنراه – إن شاء الله تعالى – في تناولنا لتفسير عبارات هذه السورة الكريمة ..

.. في الآية الكريمة : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحًا ﴾ ، نرى أنَّ الواو هو حرف قسم وجر ، وكلمة العاديات مجرورة بواو القسم ، والجار والمجرور متعلّقان بفعل القسم المحذوف ، وكلمة : ﴿ ضَبۡحًا ﴾ هي مفعول مطلق لفعل محذوف .. ويكون تقدير الكلام : والعاديات تضبح (هي) ضبحاً ، وجملة : (تضبح ضبحاً) هي حال من العاديات ، بتقدير : والعاديات حال كونهن ضابحات ..

.. وهنا .. سنقف عند مفهوم القَسَم كما يبيّنه لنا كتاب الله تعالى .. فالقَسَم يتكوَّن – إضافة للمُقْسِم – من : مُقسَم به ، ومُقسَم عليه .. وهنا علينا أن نميِّز بين هذا المفهوم للقسم حينما يتعلّق بالبشر من جهة ، وبينه حينما يتعلَّق بالله تعالى .. بالنسبة لنا نحن البشر ..

١ – الْمُقسَم به ، هو ما نقرُّ بأنَّه أعظم منَّا ، ونريد جعله شاهداً علينا ومعاقباً لنا ومنقِصاً من قيمتنا ، إن لم نكن صادقين بصحّة قولنا عن الْمُقسَم عليه الذي نريد إثباته ..

٢ – الْمُقسَم عليه ، هو ما نريد إثباته عبر القسم ، وبأنَّنا صادقون في قولنا عنه ..

هذه هي حقيقة القسم بالنسبة لنا نحن البشر ، ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يأتي بكلمتي [﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ ، ﴿ أَقْسَمُواْ ﴾] المتعلّقتين بالبشر دون أن تُسبقا بكلمة ﴿ لَآ ﴾ .. فالقسم هنا قَسمٌ كامل ، وفق المفهوم المتعلّق بالبشر .. وكلمتا : [﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ ، ﴿ أَقْسَمُواْ ﴾] المتعلّقتان بالبشر وبهذه الصيغة ، تردان في كتاب الله تعالى (٨) مرّات ..

أمَّا بالنسبة لله تعالى ، فإنَّ كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ العائدة إلى الله تعالى ترد أيضاً (٨) مرّات ، ولو نظرنا إلى كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ العائدة إلى الله تعالى لرأينا أنّها تأتي في القرآن الكريم مسبوقةً دائماً بكلمة ﴿ لَآ ﴾ .. دائماً .. فما الحكمة من اقتران كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ المرتبطة بالله تعالى بكلمة ﴿ لَآ ﴾ التي تفيد النفي ؟ ..

١ – من زاوية الْمُقسَم عليه ، فإنَّ الله تعالى يريد أن يُثبت لنا صحّة الْمُقسَم عليه ..

٢ – من زاوية الْمُقسَم به ، فإنَّ المسألة تُخالف مسألة القسم بالنسبة للبشر .. إنَّ الْمُقسَم به لنا البشر هو أعظم من صاحب القسم ، أمّا بالنسبة لله تعالى فلا وجود للقسم من هذه الزاوية ، لأنّه لا شيء أعظم من الله تعالى .. وهكذا نرى أنَّ القسم (المتعلّق بالله تعالى) من هذه الزاوية ، ليس قسماً كقسمنا الذي نقسم به ..

.. فمسألة القسم عندما ترتبط بالله تعالى ، تعني : أنَّه لا يُوجَد ما هو أعظم من الله تعالى لِيُقسم به من أجل إثبات صحّة المقسَم عليه ، وأنَّ المقسَم عليه ثابت دون الحاجة للقسم ، كون القائل هو الله تعالى .. ولذلك فالقسم المرتبط بالله تعالى هو من زاوية إثبات صحّة المقسم عليه يفيد معنى القسم ، ومن زاوية الْمُقسم به ليس قسماً .. هذا هو

عمق الحقيقة التي يصوّرها لنا القرآن الكريم عبر اقتران كلمة : ﴿ أُقْسِمُ ﴾ المرتبطة بالله تعالى بكلمة : ﴿ لَآ ﴾ ..

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة : ٧٥]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقّة : ٣٨ – ٣٩]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠]

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ١ – ٢]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير : ١٥ – ١٦]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ [الانشقاق : ١٦]

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد : ٩٠]

.. إذاً .. مفهوم القسم المتعلِّق بالله تعالى ، لا يُقارن بمفهوم القَسم المتعلّق بالبشر .. ففي حين أنَّ مفهوم القَسَم المتعلّق بالبشر يعني وضع المُقسَم به شاهداً ومعاقِباً ومنقِصاً من قيمة المُقسِم ، إن لم يكن المُقسِم صادقاً بصحَّة قسمه ، فإنَّه لا وجود لقسم يتعلَّق بالله تعالى وفق هذا المفهوم .. إطلاقاً .. فالله تعالى لا يُوجد ما هو أعظم منه ، وقوله جلَّ وعلا ثابت وصادقٌ ومطلق دون الحاجة للقسم ..

.. ما نسميّه مجازاً واصطلاحاً بشريّاً بقسم مُتعلّق بالله تعالى ، هو وَضْع الله تعالى للمقسَم به كدليلٍ نعلمه ، من أجل إثبات المُقسَم عليه ، حيث هناك – دائماً – رابطة وثيقة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه .. بمعنى : هذا الذي تعلمونه (المُقسَم به) يتعلَّق به المُقسَم عليه .. لذلك .. فالمُقسَم به أمرٌ معلومٌ بالنسبة لنا ، يضعه الله تعالى لنا لإثبات صحّة المُقسَم عليه ، حيث هناك رابطة بينهما .. ولا يُشترَط بالمُقسَم به إلاَّ ذلك ..

.. لذلك .. فقولنا الاصطلاحي الوضعي بأنَّ الواو في كلمة : ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ﴾ هو حرف قسم وجر ، وأنَّ كلمة العاديات مجرورة بواو القسم ، والجار والمجرور متعلّقان بفعل القسم المحذوف ، لا يعني محاكاةً لمفهوم القسم حينما يتعلَّق بالبشر ، ولا يعني حتميّة كون المُقسَم به أمراً إيجابيّاً .. أبداً .. كلُّ ما يُشترَط في المُقسَم به ، أن يكون الدليلَ المعلوم كمقدِّمة مشهودة بالنسبة لنا ، يتمُّ من خلالها إثبات حقيقة المُقسَم عليه ..

.. وهذه الصيغة المعرَّفة بأل التعريف للمُقسَم به : ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ﴾ ، كجمع مؤنَّث سالم لاسم فاعل هو (العادية) ، ليست جمعاً لذوات محدَّدة بعينها ، وإنّما هي جمعٌ لحالات من الممكن أن تفعلها عدّة ذوات .. والقسم ليس بهذه الحالات كمجرَّد صفات مجرَّدة عن حركة الفعل المتولّد عنها ، وإنّما هو قسم بها حال كونها تفعل في إطار صفة الحالة المعنيّة (العادية) ، بمعنى : وأقسم بالعاديات حال كونها تضبح ضبحاً .. فالقسم ليس بالعاديات ، وإنّما بالعاديات حال كونها تضبح ضبحاً ..

.. وتعريف العاديات ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ﴾ بأل التعريف له دلالته في كتاب الله تعالى ، فبالنسبة للبشر ، حالات تجاوز المسموح به إلى غيره ، هي حالات معلومة مبيَّنة في كتاب الله تعالى في ظاهر دلالاته وباطنها ، فكلُّ ما ينهى الله تعالى عن تجاوزه وتعدّيه مشمولٌ بكلمة العاديات ..

.. إذاً .. المُقسَم به ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ﴾ ، هو الحالات التي يتمُّ فيها تجاوز المسموح به إلى غيره ، كونه خروجاً على مراد الله تعالى وأوامره التي بيَّنها للبشر ..

.. وكلمة ﴿ ضَبۡحًا ﴾ هي المشتق الوحيد للجذر (ض ، ب ، ح) في كتاب الله تعالى ، ولذلك لا بدَّ من مقاربة المعنى من السياق القرآني المحيط .. ولا بأس من النظر في قواميس اللغة للبحث عن رابط معنى له تعلّقه بهذا السياق ، فهذه الكلمة ﴿ ضَبۡحًا ﴾ هي

كلمة من كتاب الله تعالى ، الذي أنزله الله تعالى في أمّةٍ أميّة ، حافظت على المفردات الفطريّة ، من عصر آدم عليه السلام إلى عصر النبيِّ ﷺ ، حيث نزل القرآن الكريم بصياغة لغويّة من الله تعالى ، بهذه المفردات الفطريّة ذاتها ، كما بيَّنت في كتبي وبرامجي ..

.. ورد في معجم لسان العرب :

[[.. ضَبَحَ العُودَ بالنار يَضْبَحُه ضَبْحاً أَحرق شيئاً من أَعاليه ، وورد أيضاً : والمَضْبوحة حجارة القَدّاحَةِ التي كأَنها محترقة ، وورد أيضاً : والمَضْبُوحُ حجر الحَرَّة لسواده ، والضِّبْحُ الرَّمادُ وهو من ذلك الأَزهري أَصله من ضَبَحته النار وضَبَحَتْه الشمسُ والنار تَضْبَحُه ضَبْحاً فانْضَبَحَ لَوَّحته وغيَّرته وفي التهذيب وغَيَّرَتْ لونَه ، وورد أيضاً : والانْضِباحُ تغير اللون ، وقيل ضَبَحَتْهُ النارُ غيرته ، وورد أيضاً : وانْضَبَحَ لونُه تغير إلى السواد قليلاً ، وورد أيضاً : وضَبَحَت الخيلُ في عَدْوِها تَضْبَحُ ضَبْحاً أَسْمَعَتْ من أَفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حَمْحَمَة ، وقيل تَضْبَحُ تَنْحِمُ وهو صوت أَنفاسها إذا عدون ..]] ..

.. إذاً .. الضبح (استنباطاً من روح النصِّ واستئناساً ببعض ما تحمله قواميس اللغة) بمعناه المجرَّد ، هو تغيُّر الحال والابتعاد عن الحالة الطبيعيّة باتجاه السواد والاجهاد وفقدان الطبيعة النقيّة الصافية ..

.. من هنا نرى أنَّ القَسَم هو بالحالات التي يتمُّ فيها تجاوز النفس للمسموح به إلى غيره ، تجاوزاً تتغيَّر به النفس إلى حالٍ تبتعد به عن طبيعتها باتجاه السواد وتغيّر الطبيعة النقيّة الصافية .. فكلُّ حالة تعدٍّ يقوم بها الإنسان لما ينهى الله تعالى عنه ، تغيِّره في نفسه وحاله نحو السواد وفساد طبيعته التي فطره الله تعالى عليها .. هذه الحالات من التعدّي لكلِّ ما نهى الله تعالى في كتابه الكريم ، والتي تغيِّر نقاء النفس وحالها وصفاءها باتّجاه الابتعاد عن الفطرة النقيّة نحو الظلام والسواد ، هذه الحالات هي المُقسم به في الآية الأولى من هذه السورة الكريمة ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ضَبۡحٗا ﴾ ..

.. الآية الكريمة : ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ ، تبتدأ بالفاء ، وورود حرف الفاء دون حرف الواو له دلالته في كتاب الله تعالى ، فإضافة لعطف الحالة المحمولة بهذه الآية الكريمة على الحالة المحمولة بالآية السابقة ، ولدلالة الترتيب والتعقيب المباشر ما بين هاتين الحالتين ، إضافة لذلك ، نستشفُّ أنَّ دلالات هذه الآية الكريمة ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ هي نتيجة لدلالات الآية الكريمة السابقة لها ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾ ..

.. وكلمة ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ ﴾ ، هي جمع المُورِية ، وهي من الجذر : (و ، ر ، ي) على وزن مُفعِلات ، من الفعل المتعدّي بالهمز (أورى) .. فالله تعالى لم يقل : (فالواريات) على وزن : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ ، إنما يقول ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ ﴾ ..

.. وكون كلمة المُوريات من الفعل المتعدّي بالهمز (أورى) ، وكون الإخفاء تقوم به المُورِيات كفعل ، هذا يدفعنا للقول : إنَّ كلمة ﴿ قَدۡحٗا ﴾ هي مفعول به لفعل محذوف تقديره تُوري ، بمعنى : فالمُوريات تُوري قدحاً .. وجملة (تُوري قدحاً) هي حال من المُوريات ، بتقدير : والمُوريات حال كونها تُوري قدحاً ..

.. وهذه الصيغة المعرَّفة بأل التعريف ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ ﴾ كجمع مؤنَّث سالم لاسم فاعل هو (المُورِية) من الرباعي المتعدّي بالهمز (أورى) ، وكنتيجة للحالة المحمولة بالآية السابقة ، لا يمكن أن تكون جمعاً لذوات محدَّدة بعينها ، كذوات غير عاقلة وغير مختارة للفعل الذي تقوم به ، أبداً ، إنّما هي جمعٌ لحالاتٍ من الممكن أن تتَّصف بها عدَّة ذوات عاقلة مختارة .. والقسم ليس بهذه الحالات كمجرَّد صفات مجرَّدة عن حركة الفعل المتولّد عنها ، وإنّما هو قسم بها حال كونها تفعل في إطار الصفة المعنيّة (المُورِية) ، بمعنى : وأقسم بالموريات حال كونها تُوري قدحاً .. فالقسم ليس بالمُوريات ، وإنّما بالمُوريات حال كونها تُوري قدحاً ..

.. ومشتقات هذا الجذر (و ، ر ، ي) في كتاب الله تعالى ، تعني : الخفاء وعدم الظهور .. وتحمل معنى الخلف من زاوية خفائه وعدم ظهوره ... وبذلك تكون كلمة : ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ ﴾ بمعنى : فالمُخْفِيَات ..

.. وكلمة ﴿ قَدْحًا ﴾ هي من الجذر (ق ، د ، ح) ، وهذه الكلمة ﴿ قَدْحًا ﴾ هي المشتق الوحيد لهذا الجذر في كتاب الله تعالى ، ولذلك لا بدَّ من مقاربة المعنى من السياق القرآني المحيط ، ولا بأس من النظر في قواميس اللغة للبحث عن رابط معنى له تعلّقه بهذا السياق ..

.. ورد في معجم لسان العرب :

[[.. القَدَّاحُ والقَدَّاحة الحجر الذي يُقْدَحُ به النار ، وورد أيضاً : وقَدَحَ الشيءُ في صدري أَثَّر من ذلك ، وفي حديث عليّ كرم الله وجهه يَقْدَحُ الشكُّ في قلبه بأَوَّلِ عارِضةٍ من شُبْهةٍ وهو من ذلك ، واقْتَدَحَ الأَمرَ دَبَّره ونظر فيه ، وورد أيضاً : وقال أَبو حنيفة القِدْحُ العُودُ إِذا بلغ فَشُذِّبَ عنه الغُصْنُ وقُطِعَ على مقدار النَّبْل الذي يراد من الطُّول والقِصَر]] ..

ومن استشفاف المعنى من السياق القرآني نرى أنَّ قوله تعالى ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ يعني : فالمُخفِيات لأيِّ ومضة فكر وعقل من الممكن أن تُولد في ساحة فطرة النفس النقية ، سواء داخل النفس ذاتِها ، أم في نفسٍ أُخرى ..

وتعريف ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ ﴾ بأل التعريف له دلالته في كتاب الله تعالى ، فحالات إخفاء ومضات النور والتعقّل ، هي حالات معلومة مبيَّنة في كتاب الله تعالى في ظاهر دلالاته وباطنها ، فكلُّ حالات إخفاء ومضات النور والتعقّل مشمولةٌ بكلمة ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ ﴾ ..

.. وورود الفاء في كلمة ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ ﴾ ، له دلالته التي تفيد عطف الترتيب والتعقيب ، وكون الإخفاء لأي ومضة نور وتعقّل هو نتيجة لما تحمله الآية الأولى من

دلالات ، كما بيّنا .. فتجاوز النفس للحدود التي عليها ألا تتجاوزها ، وتغيّر نقائها باتجاه السواد والابتعاد عن الفطرة النقية : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ ، هو مقدّمة تؤدّي بها إلى مرحلة ثانية هي إخفاؤها لأي ومضة نور وتعقّل وتدبّر من الممكن أن تولَد ، سواء فيها أم في غيرها : ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ ..

.. الآية الكريمة : ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ ، تبتدأ أيضاً بالفاء ، وكما قلنا : وورود حرف الفاء دون حرف الواو له دلالته في كتاب الله تعالى ، فإضافة لعطف الحالة المحمولة بهذه الآية الكريمة على الحالة المحمولة بالآية السابقة ، ولدلالة الترتيب والتعقيب المباشر ما بين هاتين الحالتين ، إضافة لذلك ، نستشّف أنّ دلالات هذه الآية الكريمة ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ هي نتيجة لدلالات الآية السابقة لها ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ .. فكما أنّ الحالة المحمولة بالآية الكريمة ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ هي مقدّمة للحالة المحمولة بالآية الكريمة ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ ، كذلك فإن الحالة المحمولة بالآية الكريمة ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ هي مقدّمة للحالة المحمولة بالآية الكريمة ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ ..

.. وكلمة ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ ﴾ ، هي جمع المُغيرة ، وهي من الجذر : (غ ، ي ، ر) ، من الفعل المتعدّي بالهمز ... ومشتقات هذا الجذر (غ ، ي ، ر) في كتاب الله تعالى تعني : سوى الشيء وخلافه وبديله .. ولا تحمل كلمة ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ ﴾ معنى الهجوم على الشيء كما هو في اللغة الوضعيّة .. فكلمة ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ ﴾ تعني : فالمُبْدِلات ..

وكلمة ﴿ صُبْحًا ﴾ هي من الجذر (ص ، ب ، ح) .. والمعنى المجرّد لهذا الجذر اللغوي هو : اكتمال ضياء الشيء ، ومنه المصباح والمصابيح ، وأصبح بمعنى صار وانتقل لحالٍ جديد .. ولا يمكن حصر كلمة ﴿ صُبْحًا ﴾ بأنّها لا تعني إلاَّ وقتاً زمنيّاً محدَّداً ..

فالصبح بمعناه المجرَّد هو الحال الجديد حين اكتمال ضيائه ، ومن هنا نرى أنَّ القول : أصبح الشيء بمعنى : انتقل انتقالاً كاملاً إلى حالٍ جديد ، ولا يعني مجرَّد دخوله في وقت محدَّد هو وقت الصبح الزمني ..

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠]

﴿ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ ﴾ [الكهف : ٤٥]

.. وكون كلمة ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ ﴾ من الفعل المتعدّي ، ونتيجة للحالتين المحمولتين بالآيتين السابقتين ، فإنَّ الفعل الذي تقوم به المُغيرات هو على غيرها .. وبذلك يكون المعنى : فالمغيرات تُبدل صبحاً .. وجملة (تُبدل صبحاً) هي حال من المغيرات ، بتقدير : فالمغيرات حال كونها تُبدل صبحاً ..

.. وهذه الصيغة المعرَّفة بأل التعريف ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ ﴾ كجمع مؤنَّث سالم لاسم فاعل هو (المُغيرة) من الرباعي المتعدِّي بالهمز ، وكون كلمة ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ ﴾ تصوِّر دلالات هي نتيجة للحالتين المحمولتين بالآيتين السابقتين ، لا يمكن أن تكون جمعاً لذوات محدَّدة بعينها ، كذوات غير عاقلة وغير مختارة للفعل الذي تقوم به .. أبداً .. إنّما هي جمعٌ لحالاتٍ من الممكن أن تتّصف بها عدّة ذوات ، عاقلة مختارة ..

.. والقسم ليس بهذه الحالات كمجرَّد صفات مجرَّدة عن حركة الفعل المتولّد عنها ، وإنّما هو قسم بها حال كونها تفعل في إطار الصفة المعنيّة (المُغيرة) ، بمعنى : وأقسم بالمُغيرات حال كونها تُبدل صبحاً .. فالقسم ليس بالمُغيرات ، وإنّما بالمُغيرات حال كونها تُبدل صبحاً ..

وهذه هي المرحلة الثالثة في الإعراض .. فبعد تجاوز الحدود عبر تعدّي حدود الله تعالى ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾ ، تأتي مرحلة إخفاء أي ومضة نور يمكنها أن تُولَد في النفس أو

في غيرها لمعرفة الحقيقة والأخذ بها ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ ، بعد ذلك تأتي مرحلة التبديل والتغيير بالدفع إلى ساحة الخطيئة ، وتبنّيها والاستيقان بها ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴾ ..

.. من هنا نرى أنَّ الحالة الثالثة المحمولة بقوله تعالى ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴾ تعني : فالمُبدلات حقيقة جلية مضيئة .. فتجاوز الحدود التي على النفس ألاّ تتجاوزها يؤدّي إلى إخفاء الحقيقة عن النفس وغيرها ، وهذا يؤدي إلى إبدال الحقيقة مهما كانت جلية ومضيئة .. هذه هي المرحلة التي تمَّ الوصول إليها بهذه الحالات الثلاث ..

.. قوله تعالى : ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴾ ، انتقال للنتيجة التي بدأت مقدّماتها بالآية الأولى وانتهت بالآية الثالثة السابقة مباشرة ، فكلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ تتعلّق بالحال والموقف الذي آلت إليها النتيجة المحمولة بالآيات السابقة .. فحالات تجاوز الحدود وما يتبعه من حالات إخفاء للحقيقة وما يتبعة من حالات تبديل للنور إلى ظلام ، هذه الحالات بما وصلت إليه من حال ، أثارت بهذا الحال نقعاً .. فإثارة النقع عملٌ تقوم به النفوس التي تتجاوز الحدود ، والتي تخفي ومضات النور والحق ، والتي تُبدل النور بظلام ..

وكلمة ﴿ فَأَثَرۡنَ ﴾ مشتقّة من الجذر (ث ، و ، ر) ، ومن الفعل المتعدّي (أثار) .. وإثارة الشيء تحريكه ..

وكلمة ﴿ نَقۡعٗا ﴾ هي المشتق الوحيد للجذر (ن ، ق ، ع) في كتاب الله تعالى .. ولا بأس من العودة إلى قواميس اللغة العربيّة للاستئناس ، ومن ثمَّ استشفاف المعنى من السياق القرآني المحيط ..

.. ورد في معجم لسان العرب :

]] .. واسْتَنْقَعَ اجْتَمَعَ واسْتَنْقَعَ الماءُ في الغَدِيرِ أَي اجتمع وثبت ، وورد أيضاً : والنَّقْعُ مَحْبِسُ الماءِ والنَّقْعُ الماءُ الناقِعُ أَي المُجْتَمِعُ ونَقْعُ البئرِ الماءُ المُجْتَمِعُ فيها قبل أَنْ يُسْتَقَى ، وورد أيضاً : ونَقَعَ السّمُّ في أَنْيابِ الحَيَّةِ اجْتَمعَ ، وورد أيضاً : واسْتَنْقَعَ في

الماء ثَبَتَ فيه يَبْتَرِدُ ، وورد أيضاً : والنَّقْعُ رَفْعُ الصوتِ ونَقَعَ الصوتُ واسْتَنْقَعَ أي ارْتَفَعَ ..]] ..

.. إذاً .. ما نستشفّه من قوله تعالى : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ ، أنَّ الحال الذي وصلت به النفس نتيجة حالات : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ ، تمَّ به إثارة ثابت فكري مجتمع في النفس والذهن ، وتحريكه باتجاه التبديل والتجاوز للحدود الفطريّة ..

.. بعد ذلك .. هذا الحال الذي وصلت به النفس نتيجة حالات ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ ، والذي تمَّ به إثارة ثابت فكري مجتمع في النفس والذهن ، وتحريكه باتجاه التبديل والتجاوز للحدود الفطريّة ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ .. تمَّ به الانتقال إلى وسط جمعٍ لفرض هذا الحال عليه ، وهذا ما نقرؤه في دلالات الآية الكريمة : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ ..

.. إذاً .. الآيات المصوِّرة للمُقسَم به : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ ، تصوّر لنا ناموساً كونيّاً في حركة الابتعاد عن الفطرة النقيّة الطاهرة التي فطر الله تعالى الناس عليها ، ابتداء بتجاوز حدود الفطرة النقيّة وما يتعلّق به من تغيّر وتلوّن باتجاه السواد داخل النفس ، ثمّ الانتقال إلى إخفاء ومضات النور التي يمكنها أن تُولَد من رحم هذه الفطرة ، ثمَّ الوصول إلى حال تبديل الحقيقة الجليّة النيره بغيرها ، ثمَّ إثارة ثابت فكري مجتمع في النفس والذهن ، وتحريكه باتجاه التبديل والتجاوز للحدود الفطريّة .. ثمَّ الانتقال إلى وسط جمعٍ لفرض هذا الحال عليه .. وبذلك تكون الصورة قد اكتملت بنقل الهوى ومحاربة الفطرة النقيّة من الذات إلى المجتمع ..

.. هذا الناموس الذي يختزل أسس الجحود ومحاربة الفطرة النقيّة في نفس الإنسان :

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴾ ، هو المقسَم به لإثبات المُقسَم عليه : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ..

.. ووجه الرابط بين المُقسَم به والمُقسَم عليه واضح جلي ، فرحلة نفس الإنسان في تجاوزها للفطرة النقيّة باتجاه الجحود والابتعاد عمَّا فطر الله تعالى الإنسان عليه ، وصولاً إلى زرعها لهذه الخطيئة في وسط المجتمع الإنساني ، وهذا ما رأيناه في المُقسَم به ، بالتأكيد له تعلّقه بكون الإنسان كافراً بنعم ربّه جلّ وعلا ، مستحضراً ما يصيبه من مصائب ، ناسياً أنّه هو من يرمي نفسه في المصائب ، وهذا ما تحمله دلالات الآية الكريمة من المُقسَم عليه : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ ..

.. والمُقسَم به له تعلّقه أيضاً بكون الإنسان يعيش حال هذا الجحود في حياته ، عبر حبّه للخير لنفسه ، وهذا ما تحمله دلالات الآيتين الكريمتين من المُقسَم عليه ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ..

.. ولا شكّ أنَّ كلمة : ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ في هاتين الآيتين الكريمتين تعودان إلى الإنسان ، وقول المفسِّرين بأنَّ الضمير في الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ يعود إلى الله تعالى ، لا دليل عليه ، ويخالف روح السياق القرآني في هذا النصِّ الكريم ..

.. كلمة ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ في الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ معطوفة على قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ في الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ .. بمعنى : ((وإنَّ الإنسان على ذلك لشهيد)) .. فالإنسان شهيد على كونه كافراً بنعم ربّه جلّ وعلا ، مستحضراً ما يصيبه من مصائب ، ناسياً أنّه هو من يرمي نفسه في المصائب ..

.. وما نراه هو ورود كلمة ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ وليس (لشاهد) .. فكلمة شهيد على وزن (فعيل) ، ودلالاتها تقتضي الحضور والوجود في الأمر الذي تقع عليه الشهادة ، بمعنى : المباشرة والمعاينة في موضوع الشهادة ، عبر الحضور مع الأمر الذي تتمُّ الشهادة عليه في ذات إطار الوجود ..

.. وهذا أمر طبيعي ، فكفر الإنسان بنعم ربّه جلّ وعلا ، واستحضاره لما يصيبه من مصائب ناسياً أنّه هو من يرمي نفسه في المصائب ، كلُّ ذلك يتفاعل معه الإنسان من خلال وجوده الحسّي ، في ذات إطار الوجود الحاوي للمواضيع التي يكفر بها ويستحضر ما يصيبه من مصائب ، ناسياً أنّه هو من يرمي نفسه في تلك المصائب .. وهذا ما تصفه كلمة ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ وليس كلمة (لشاهد) ..

.. وفي الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ نرى ورود كلمة ﴿ عَلَىٰ ﴾ التي تفيد الاستعلاء ، فالإنسان مطّلعٌ على جحوده وإنكاره لما يجب عليه ألا يجحده وينكره ، وذلك كون هذا الجحود نابعاً منه ..

.. وما نراه في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ هو تقديم الكلمتين ﴿ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ على كلمة ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ ، فالجحود عمل الإنسان وهو فعْله الذي ينبع من ذاته ، وبالتالي يسبق أيَّ شهادة عليه ، حتى شهادته هو ذاته على ذلك .. من هنا نرى عظمة التصوير القرآني بتقديم الكلمتين ﴿ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ على كلمة ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ ..

.. قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ، نرى فيها تكرار كلمة ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ ، وفي هذا بيانٌ أنَّنا أمام مسألة أُخرى جديدة تصف حالاً من صفات الإنسان ..

.. وكلمة ﴿ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ من الجذر (خ ، ي ، ر) ، والخير ضدّ الشر ، وهو المفَضَّل والموافق للحاجة والمنفعة والفائدة المرجوة .. ومن هنا كان الاختيار بمعنى التفضيل والاصطفاء ، والتخيير هو التفويض لانتقاء المُراد ، والخِيَرَةُ التفويض بالتفضيل والانتقاء ..

.. ولا يمكن حصر كلمة ﴿ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ بالمال فقط ، فالتفضيل والحاجة والمنفعة والفائدة المرجوة للإنسان ، مسائل كثيرة ليست مقتصرة فقط على المال ..

.. وكلمة ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ من الجذر (ش ، د ، د) ، والشِّدَّةُ هي الصَّلابةُ ونَقِيضُ اللِّين ، وكلُّ ما أُحْكِمَ فقد شُدَّ ، وشدَدَ الشيء قوّاه وجعله ثابتاً ، والشديد القوي والصلب والراسخ ..

.. وما نراه أنَّ الله تعالى لم يقل : (**وإنَّه لشديد حبِّ الخير**) ، فالتصوير القرآني لم يقدِّم شدّة الإنسان على حبِّ الخير ، فحبُّ الإنسان للخير نابعٌ من ذاته ابتداء وكينونة ، وتأتي الشدّة في ذلك نتيجة تفاعله مع حيثيّات الدنيا كتفاعلٍ لاحقٍ على كينونة خلقه ..

من هنا نرى عظمة التصوير القرآني في تقديم الكلمتين ﴿ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ على كلمة ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ ..

.. قوله تعالى ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ ، نرى فيه أنَّ الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء للعطف على مقدَّر تقديره : أيفعل ما يفعل من الجحود والإنكار وهو شهيد على ذلك ، ولا : نافية .. فيكون التقدير : ومع كلِّ ما يفعل ، لا يعلم أنَّ الله تعالى يجازيه حينما يُبعثَر ما في القبور ..

.. والبعثرة قلب المُبعثَر واستخراجه واستكشافه وتفريقه وإخراج ما به ، وقد وردت في كتاب الله تعالى في نصٍّ آخر ، وجاءت – أيضا – متعلّقة بالقبور ، وبالآخرة ..

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ [الانفطار : ١ – ٥]

.. وكلمة ﴿ ٱلۡقُبُورِ ﴾ من الجذر (ق ، ب ، ر) ، والقبر في كتاب الله تعالى هو مدفن الإنسان ، وجمعه قبور ، وهنا نرى جانباً معنويّاً في الأمر ، فخروج الإنسان من الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ هو إقبار هذا الإنسان في ذلك العالَم ، فالقبر هو دفن الإنسان كنفس في عالم البرزخ .. ومن هنا نرى معنى قوله تعالى :

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧ – ٢٢]

.. فكلمة ﴿ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴾ تعني وضع نفسه في قبرها في عالم البرزخ ، أي وضع الإنسان كنفس في قبره ، ولا تعني مجرَّد دفن الجسد فاقد الحياة تحت التراب ، فهناك بعض الحالات يتطاير فيها الجسد ولا يُوضَع تحت التراب ..

.. ومكان دفن الجسد تحت التراب هو مقبرة ، وجمعه مقابر ، يقول تعالى :

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ – ٢]

.. إذاً .. قوله تعالى : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ يعني : مع كلِّ ما يفعل الإنسان من جحود وإنكار ومخالفة ، لا يقف على حقيقة كان عليه أن يعلمها ، هي أنَّ الله تعالى يجازيه حينما يُخرَج من قبره ، ويظهر ما بكينونته من الجحود والعصيان ..

.. وما نراه أنَّ الله تعالى يقول ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ ولم يقل : (مَن في القبور) ، فورود كلمة ﴿ مَا ﴾ دون كلمة (مَن) له دلالته في كتاب الله تعالى

.. فالبعثرة ليست مقصورة على نفوس البشر بتفريقها عن بعضها وإخراجها من قبورها ، إنّما تطال أيضاً مكنونات كل نفس وما بداخلها ممَّا كانت تخفيه في حياتها الدنيا ..

.. فورود كلمة ﴿ مَا ﴾ دون كلمة (مَن) تصويرٌ مطلق لحقيقة الدلالات المحمولة في السياق السابق واللاحق لهذه الآية الكريمة ، وتصويرٌ مطلق لحقيقة تعلّق المقسَم به بالمقسَم عليه في بداية هذه السورة كما بيّنا ، فالناموس الذي يحكم رحلةَ الخطيئة في نفس الإنسان ابتداء بصدر الإنسان وانتهاء بالمجتمع ، يتعلَّق بمكنونات النفس وبتفاعلها مع ما حولها في حياتها الدنيا .. ولذلك نرى الآية التالية مباشرة تتابع تصوير هذه المسألة : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ..

.. كلمة ﴿ وَحُصِّلَ ﴾ فعل ماض مبني للمجهول على نسق ﴿ بُعْثِرَ ﴾ .. وكلمة ﴿ وَحُصِّلَ ﴾ تعني : وأُبرز وميِّز وأُظهِر الحقُّ وذهب ما سواه .. وكلمة ﴿ ٱلصُّدُورِ ﴾ من الجذر (ص ، د ، ر) ، وصدرَ الشيء بمعنى ذهب وانصرف ..

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٣]

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [الزلزلة : ٦]

.. من هنا كان الصَّدْر مخزن ما تنصرف به النفس في حركة حياتها تجاه ما يحيط بها ، فهو مخزن مكنونات النفس ، بمعنى ما تُخفيه ، وبالتالي ما تحتويه من مكنونات .. فالصدر كمخزن لتلك المكنونات التي ينصرف بها الإنسان في تفاعله مع الحياة ينشرح ويضيق ..

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٢٥]

.. ومن الممكن أن يخفي الإنسان حقيقة هذا المخزون الذي ينصرف به في تفاعله مع ما يحيط به ، ومن الممكن أن يعلن عنه ..

﴿ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ [غافر : ١٩]

.. والوسواس الخنّاس يوسوس في هذا المخزون النفسي لينصرف به الإنسان وفق مراد الشيطان ..

﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤ – ٥]

.. ودلالات هذه الآية الكريمة ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ معطوفة على ما قبلها ﴿ بُعۡثِرَ مَا فِى ٱلۡقُبُورِ ﴾ ، بمعنى : مع كلِّ ما يفعل الإنسان من جحود ومعصية ، لا يعلم أنَّ الله تعالى يجازيه حينما يُخرَج من قبره ويظهر ما كان يُخفيه ، وحينما يَبرز ويتميَّز ويظهر مخزونه النفسيّ الذي كان ينصرف به في جحوده وتفاعله في حياته الدنيا ..

.. ودلالات الآيتين الكريمتين : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِى ٱلۡقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ تؤكِّد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرنا لآيات المُقسَم به والمُقسَم عليه في بداية هذه السورة ، فالناموس الكوني في حركة نفس الإنسان في الابتعاد عن الفطرة النقيّة الطاهرة ، ابتداء بتجاوز النفس لحدود الفطرة النقيّة وما يترتّب على ذلك من تلوّثها باتجاه السواد ﴿ وَٱلۡعَـٰدِيَـٰتِ ضَبۡحًا ﴾ ، ثمّ الانتقال إلى نتيجة ذلك وهي إخفاء هذه النفس لومضات النور التي يمكنها أن تُولَد من رحم هذه الفطرة ﴿ فَٱلۡمُورِيَـٰتِ قَدۡحًا ﴾ ، ثمّ الانتقال إلى نتيجة ذلك وهي الوصول إلى حال تبديل الحقيقة الجليّة بغيرها ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحًا ﴾ ، ثمّ إثارة ثابت فكري مجتمع في النفس والذهن ، وتحريكه باتجاه التبديل والتجاوز للحدود الفطريّة ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعًا ﴾ .. ثمّ الانتقال إلى وسط جمعٍ لفرض هذا

الحال عليه ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ .. وكلُّ ذلك (المُقسَم به) .. يتعلَّق بدلالات المُقسَم عليه ، أي بجحود الإنسان وبكونه شهيداً على ذلك وبحبّه الشديد للخير : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .. كلُّ ذلك (المُقسَم به والمُقسَم عليه) ، قضايا نفسيّة تتعلَّق بمخزون النفس وانصرافها به تجاه حركة حياتها فيما يحيط بها ، وهذا ما رأيناه في الآيتين : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ..

.. الآية الأخيرة في السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ نرى فيها تعليلاً لقوله تعالى : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ، بمعنى : مع كلِّ ما يفعل الإنسان من جحود وإنكار ومخالفة (وهذا ما رأيناه في الآيات الحاملة للمقسم به والمقسم عليه) ، لا يقف على حقيقة كان عليه أن يعلمها وهي أنَّ الله تعالى يجازيه ، حينما يُخْرَج من قبره ويظهر ما بكينونته من الجحود والعصيان ، وحينما يَبرز ويتميَّز ويظهر مخزونه النفسيّ الذي كان ينصرف به في جحوده وتفاعله في حياته الدنيا .. ثمَّ جاءت الآية الكريمة ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ تعليلاً لذلك ..

.. وكلمة ﴿ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ من الجذر (خ ، ب ، ر) .. وفي كتاب الله تعالى الخُبْرُ المعرفة والعلم والدراية ..

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف : ٩١]

والخَبَر هو النبأ والعلم والمعرفة ..

﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : ٢٩]

.. وأخبار الشيء أموره وحوادثه ..

﴿ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ ﴾ [التوبة : ٩٤]

.. والخبير بالشيء هو العالم به ، والذي يحيط معرفة به وبأحداثه ..

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٧١]

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٣]

.. وكلمات الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٍ ﴾ متعلّقة بكلمة : ﴿ لَّخَبِيرُۢ ﴾ .. ونرى أنَّه تمَّ تقديم الكلمتين : ﴿ بِهِمۡ يَوۡمَئِذٍ ﴾ على كلمة : ﴿ لَّخَبِيرُۢ ﴾ وأنَّه تمّ تقديم كلمة : ﴿ بِهِمۡ ﴾ على كلمة : ﴿ يَوۡمَئِذٍ ﴾ .. فالتصوير القرآني الكريم يُلقي الضوء عليهم في ذلك اليوم كأساس بياني ، يجعل من وصف حقيقتهم في ذلك اليوم مركز البيان الدلالي في هذه الآية الكريمة .. فأولوية التصوير القرآني في هذه الآية الكريمة ليس الحديث عن كون ربِّهم جلَّ وعلا خبيراً ، وليس الحديث عن ذلك اليوم ، وإنما الأولويّة لبيان حالهم في ذلك اليوم ، من زاوية كون ربِّهم بهم خبيراً ..

.. وما نراه أيضاً هو ورود صيغة الربوبيّة المضافة لهم : ﴿ رَبَّهُم ﴾ دون صيغة الإلوهيّة ، وهذا يتعلَّق بكون المسائل المحمولة في الآيات السابقة لا تخرج عن ساحة الربوبيّة من تسخير للأسباب بين يدي الإنسان ، وهذا ما يتجلَّى في الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ من المُقسَم عليه ، حيث ورود صيغة الربوبيّة : ﴿ لِرَبِّهِۦ ﴾ ، وحيث الجحود في النعم المسخّرة بين يدي الإنسان ﴿ لَكَنُودٞ ﴾ ..

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّخَبِيرُۢ ﴾ ، نرى تخصيص كلمة : ﴿ لَّخَبِيرُۢ ﴾ في ذلك اليوم ، وذلك بورود كلمة : ﴿ يَوۡمَئِذٍ ﴾ في هذه الآية الكريمة ، مع العلم أنَّ الله

تعالى خبيرٌ دائماً بكلِّ شيء ، سواء في ذلك اليوم أو في غيره .. وهذا التخصيص يعود إلى كون مركز البيان الدلالي المحمول في هذه الآية الكريمة ، يتعلّق بماهيَّتهم ، ولذلك نرى كلمة : ﴿ بِهِمْ ﴾ تتقدّم الكلمتين : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .. فكما بيّنا ، أولوية التصوير القرآني في هذه الآية الكريمة ليس الحديث عن صفة الخبير لله تعالى ، إنّما لبيان حالهم في ذلك اليوم ، كون دلالات السورة القرآنيّة بمجملها تتناول مكنونات النفس ورحلتها مع حيثيّات جحودها وابتعادها عن الفطرة النقيّة ... من هنا نرى تأخير كلمة : ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ وتعلّق الكلمات : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ بها ، وتخصيصها بكلمة : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ..

.. ما نراه في هذه السورة الكريمة أنَّنا أمام وحدة متكاملة متناسقة ، من أوَّل آية فيها إلى آخر آية ، وأنَّ الذهاب بتفسير المُقسَم به في بدايتها بأنَّه يتعلَّق بالخيل وحوافرها وهجومها على القوم ، أو بمادَّة جامدة غير عاقلة وغير مختارة لفِعْلها ، هو مخالفة صريحة لصياغة كلمات هذه السورة الكريمة وعباراتها ..